تحليل ظاهرة الحسد عند المحاسبى

د. حامد طاهر

نلتقى فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بمحاولة فريدة قام بها الحارث المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) لتحليل ظاهرة الحسد ، وبيان دوافعه القريبة والبعيدة ، وتقديم وجهة النظر الاسلامية فى علاجه ، وتطهير الانسان من آثاره ومظاهره .

والواقع أن أهمية هذه المحاولة تتمثل فى أنها — على المستويين السيكولوجى والاجتماعى — تكشف عن تفاصيل غاية فى الدقة ، وتتبع بعناية عناصر هذا الشعور الغامض الذى يكمن فى أعماق النفس ، ويكاد يستعصى على الدراسة العلمية والمعملية معا .

وجدير بالذكر أن المحاسبى قد استطاع بثقافته الدينية العميقة من تحليل ظاهرة الحسد تحليلا بارعا ، مع دعمها بالنماذج الاجتماعية ، والشواهد التاريخية ، وأخيرا فان الجو الروحى الذى وضعها فى اطاره قد نقلت ظاهرة الحسد مباشرة الى مجال الأخلاق الاسلامية .

تشغل ظاهرة الحسد حوالى ثلاثين صفحة من كتاب (الرعاية لحقوق الله (١)) وهو أهم مؤلفات المحاسبى ، الذى يقول عنه المستشرق الفرنسى ماسينيون Massignon : ان المحاسبى سما فيه بالتحليل النفسى الى مرتبة لا نجد لها مثيلا فى الآداب العالمية الا نادرا (٢) .

---

(١) من ص ٤١٨ — ٤٤٤ .

(٢) حقق كتاب الرعاية د . عبد الحليم محمود بالاشتراك . أنظر ص ٧ وما بعدها .

وقد أطلق المحاسبى على بحثه عنوان « كتاب الحســد » ، ثم قسمه الى تسعة أبواب ، تتوالى على النحو التالى :

١ — باب فى ذكر الحسد ، ووصفه ، وتفسير محرمه من مباحه •

٢ — باب من الحسد ، وليس بالحســد بعينه •

٣ — باب ما يكون من الحسد على الرياسة وحب المنزلة •

٤ — باب ما يكون من الحسد على الحقد والعداوة والبغضاء •

٥ — باب ما يكون من الحســد عن حب ظاهر الدنيا •

٦ — باب ما يكون من الحسد عن العجب •

٧ — باب متى يعلم العبد أنه قد نفى الحســد •

٨ — باب الرد على من قال : ان الحسد بالجوارح •

٩ — باب هل على الحسد مظلمة للمحسود عند الحاسد ، اذا أصابه ما تمناه له ، أو هو ذنب بينه وبين الله ، عز وجل •

وبقدر يسير من التصنيف يمكن أن نكشف عن خطوات المنهج الــذى اتبعه المحاسبى فى دراسة ظاهرة الحســد ، وسنجدها على الوجه التالى :

١ — تحديد مفهوم الحسد ، والتفريق بينه وبين المنافسة •

٢ — موضوع الحسد : النفس أم الجوارح •

٣ — علاج داء الحســد •

٤ — دوافع الحســد •

٥ — الجزاء الأخلاقى للحســد •

ونلاحظ أنه بنقل الخطوة الرابعة الى مكانها الطبيعى بعد الخطوة الأولى ثم وضع الخطوة الثانية فى مكان الرابعة ، يصبح المنهج متسقا الى حــد كبير •

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى طريقة المحاسبى فى معالجة الموضوع وجدناه :

أولا : يستخدم طريقة الحوار بين شخصين • ومما يلفت النظر هنا أنه يقوم بدور السائل دائما فيستعمل كلمة : « قلت •• » فى حين يقدم الأجوبة على لسان مسئول مجهول مفتتحة بكلمة « قال •• » •

وقد نجحت هذه الطريقة فى تحقيق النتائج التالية :

— تحليل الموضوع الى أبسط عناصره •

— الاحاطة بمعظم هذه العناصر ، قدر الامكان •

— تحقيق المشاركة العقلية والنفسية لدى المتلقى ، الذى تتولد فى ذهنه الأسئلة وهو يقرأ ، كما ينمو لديه الفضول العلمى الى معرفة الاجابات ، وهو يتابع •

ثانيا : يعتمد المحاسبى فى الاقتباسات التى يوردها شرحا لنقطة غامضة ، أو تأكيدا لمسألة مختلف فيها — على كل من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وأخبار السلف وأقوالهم من الصحابة والتابعين ، ثم على بعض المفاهيم المصطلح عليها لمفردات اللغة العربية •

وحقيقة لا نكاد نعثر على أثر أجنبى واضح ، لدى المحاسبى ، فى دراسة ظاهرة الحسد • اللهم الا فى فكرة واحدة سنشير اليها فى موضعها • ومع ذلك فلا يمكن اغفال الاشارة الى أن المنهج ذا الخطوات المتسقة والأفكار الجزئية المرتبة ، الذى سار عليه المحاسبى — ليس ببعد كثيرا عن « روح التأليف » التى بدأت تسود العالم الاسلامى فى القرن الثالث الهجرى • والتى أسهم المعتزلة — خصوم أهل السنة والصوفية معا — بنصيب كبير فى اشاعتها •

ثالثا : اللغة التى استخدمها المحاسبى لغة واضحة ، بعيدة عن الغموض ،

خالية من التعقيد • وعلى الرغم من أنه يميل الى الشرح والتطويل ، فان عباراته دقيقة ، وكلماته مختارة بعناية لتحديد المعنى المطلوب •

الحســد والمنافســة :

اعتمد المحاسبى فى بيان الحسد على كل من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والمصطلح اللغوى • وعن طريق استقراء هــذه المصادر الثلاثة ، استطاع أن يكشف عن نوعين من الحسد ، وصفهما وصفاً شرعيا ، فسمى الأول : الحســـد المحرم ، والثانى : الحسد غير الحرم •

أما الحسد غير المحرم فهو ما يعرف بالمنافسة • قال الله تعالى : (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) [١] وقـــال : (وسابقوا الى مغفرة من ربكم) [٢] ولا تكون المسابقة من العبد الا أن يسابق غيره •

وقال النبى ، صلى الله عليه وسلم : « لا حســـد الا فى اثنتين : رجل آتاه الله ، عز وجل ، مالا ، فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله ، عز وجل ، علماً ، فهو يعمل به ، ويعلمه الناس » فقوله : « الا فى اثنتين » أى الحســـد فيهما جائز •

ويوضح المحاسبى المنافسة بأن يرى الانسان بغيره نعمة ، فى دين أو دنيا ، فيغتم ألا يكون أنعم الله عليه بمثل تلك النعمة • فيحب أن يلحق به ، ويكون مثله ، لا يغتم من أجل المنعم عليه نفاسة منه عليه ، ولكن غما الا يكـــون مثلـــه •

ثم يصنف هذه المنافســـة الى أربعة أصناف : أولها فرض واجب ، والثانى فضل أو تطوع ، والثالث مباح ، والرابع غير جائز •

---

(١) سورة المطففين ، آية ٢٦ •
(٢) سورة الحـديد ، آية ٢٠ •

وتتمثل المنافسة الواجبة فى أن يرى الانسان أحداً يؤدى ما فرضه الله عليه ، وينتهى عما نهاه عنه ، فيحب أن يكون مثله ، ويتمنى ذلك . فهذا هو الفرض الذى ينبغى أن يحاسد الانسان فيه غيره ، بل ان عدم الشعور بذلك يعد من المعصية .

أما منافسة التطوع فتبدو من رؤية الانسان أحداً يزيد عما كتب عليه من الفرائض ، ويلزم نفسه بأكثر مما نهى عنه من المحرمات ، فيتمنى أن يكون مثله ، ويحب أن يلحق به ، فذلك فضل منه وتطوع .

ويلاحظ المحاسبى أن هذين الصنفين يتعلقان بالأمور الدينية . وعليهما يحض المحاسبى ، أما النوعان الآخران ، فيختصان بأمور الدنيا ، وعنهما ينهى المحاسبى .

فأولهما : المنافسة المباحة ، وهو أن يرى الانسان شخصا يتنعم فى حياته بما أسبغ الله عليه من الحلال ، فيغتم ألا يكون مثله ، ويحب أن يوسع عليه كما وسع على من نافسه ، وأن يلحق به فيكون متنعما مثله . فذلك مباح له ، وليس بمحرم عليه ، وانما هو نقص فى الفضل وانحراف عن الزهد المطلوب .

وثانيهما : المنافسة غير الجائزة . وهى أن يرى الانسان أحدا يكتسب الحرام ، وينفق ماله فيما لا يحل له ، ويرتكب المعاصى ، ويتلذذ بها ، فيغتم ألا يكون مثله ، ويحب أن يصيب من المال واللذة مثل ما أصاب ، فذلك منه لا يجوز ، وانما كان كذلك ، لأنه تمنى الحرام ، وأحبه .

ويستشهد المحاسبى على هذا الصنف الأخير بقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه فى معاصى الله ، عز وجل ، ورجل لم يؤته الله ، عز وجل ، مالا ، فيقول : لو أن لى مثل مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله ، فهما فى الوزر سواء » .

وأخيرا يحدد المحاسبى مفهوم المنافسة ، بأنها : كراهد التقصير عن منزلة الغير ، ومحبة المساواة واللحوق به ، مع ترك التمنى : أن يزول على من نافسه حاله التى هـو عليها •

وهنا نصل الى مفهوم الحسـد المحرم ، الذى ذمه الله تعالى ، فى كتابه ، والرسـول ، صلى الله عليه وسلم ، فى سنته ، واجتمع على التنفير منه علماء الاسـلام ، وهـو : كراهة النعم أن تكون بالناس ، ومحبـة زوالها عنهم •

قال الله ، تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يرد ونكم من بعد ايمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم) [١] وقال (ان تمسسكم حسنة تسؤهم) [٢] •

وقالت صفية بنت حيى للنبى ، صلى الله عليه وسلم : جـاء أبى وعمى من عندك ، فقال أبى لعمى : ما تقول فيه ؟ قال : أقول انه النبى الـذى بشر به موسى • قال : فما ترى ؟ : أرى معاداته أيام الحياة » [٣] •

ثم ينتقل المحاسبى الى الاستشهاد بالسنة ، فيروى عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قوله « لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » كما أخبر ، عليه السلام ، أن الحسـد سيصيب المسلمين كما أصاب الأمم السابقة ، فقال : « دب اليكم داء الأمم : الحسد والبغضـاء » •

وأخيرا يستشهد المحاسبى بأقوال الصحابة ، فيروى عن أبى قلابة

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٠٩ •
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٢٠ •
(٣) وبذلك وصف الله أهل الكتاب والمشركين أنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم على علم ، فقال (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ سورة البقرة ١٤٦) وقال (يكتمون الحق وهم يعلمون ـ سورة البقرة ١٤٦) وانظر « تلبيس ابليس » لابن الجـوزى ص ٧٢ •

قوله : « ما قتلوا عثمان ، رضى الله عنه ، ألا حسدا » أى حسدوه على الخلافة فأحبوا أن يزيلوها عنه .

كما يروى عن الحسن أنه عندما سئل : أيكون المؤمن حسودا ؟ قال : لا أبا لك ، ما أنساك بنى يعقوب .. فعلوا بأخيهم ما فعلوا !

ويمسك المحاسبى بهذه الاجابة ، ليقدم لنا صورة حية من الحسد ، كما رواها القرآن الكريم ، فيقول : « ثم أخبرك عن اخوة يوسف ، حين حسدوا ، فعبروا بألسنتهم عما فى قلوبهم من حسده ، فقالوا (ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ، ونحن عصبة ، ان أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) [1] فكرهوا خصوصية أبيه له بالحب من بينهم ، وأرادوا أن يزيلوا حب أبيه له ، وبره به ، وتفضيله اياه عليهم ، بأن يغيبوه عنه ، فيقبل بالحب عليهم والبر ، ويزول ذلك عن يوسف ، فقالوا : « يخل لكم وجه أبيكم » ليكون لهم اذا غاب ، حسدا له على حب أبيه ، وبره ، وتفضيله اياه » .

موضع الحسد :

لا يوافق المحاسبى على وجهة النظر التى ترى ان الحسد يكون بالجوارح ، ويعتمد فى نقدها على حجتين :

الحجة الأولى :

لغوية ، وتقوم على استقراء النصوص القرآنية التى وردت بشأن الحسد ، ومنها يلاحظ أن القرآن استعمل دائما ، فى وصف شعور الحسد الذى يتملك الكفار وأهل الكتاب ، لفظة « ود » وهو فعل قلبى ، يختص بالاحاسيس والمشاعر حسب مدلول اللغة العربية .

---

(١) سورة يوسف ، آية ٩ .

الحجة الثانيـــة :

عقلية ، وتقوم على التفرقة بين الحســـد والآثار المترتبة عليه • الحسد شعور قلبى ، أما آثاره فقد تستخدم الجوارح فى التعبير عن هــذا الشعور • وذلك كأن يؤذى الحاســـد المحسود أذى ماديا ، أو يكذب عليه ، أو يغتابه ، أو يمنع عنه خيراً • ولم يقل أحــد أن أيا من الأذى ، أو الكذب ، أو الاغتياب ، أو منع الخير هــو الحســـد •

وأخيرا ينبه المحاسبى الى وصف القرآن لشعور الأنصار تجاه اخوانهم المهاجرين الذين ظهرت عليهم آثار النعمة بعد الحرمان ، وهــو شعــور سام يقف على النقيض تماما من شعور الحسد ، اذ يقول (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) [1] فدلك بذلك أن الحســـد فى النفس ، دون الجوارح ، واستعماله بالجوارح عمل مترتب على الحسد ، لا الحسد بنفسه •

دوافع المنافســة :

سبق أن المحاسبى قد فرق بين نوعين من المنافسة : أحدهما ينصب على الجانب الدينى ، والآخر على الحياة الدنيوية •

وهو يرى أن دافع المنافسة الدينية يأتى من « حب طاعة الله ، عز وجل ، والعزم على القيام بها ، لو أعطى أسبابها ، التى بها ينالها » •

أما دافع المنافســـة الدنيوية ، فيتمثل فى « حب الدنيا ، وحب سعة العيش فيها ، والتنعم بخيراتها » •

ويلاحظ أن المحاسبى يمر سريعا على هذه الدوافع ، دون أن يقـــدم مزيدا من التفصيل أو الشرح • وقد يرجع ذلك الى أنه كان يركز على

---

(١) سورة الحشر ، آية ٩ .

الحسد المحرم ، نظرا لخطورته على الفرد والمجتمع . أما المنافسة فقد دعا اليها فى مجال الدين ، ولم يتشدد على أصحابها فى مجال الدنيا ، بل كان معهم رحيما ، أدرك أن حرص الانسان على الاستئثار بالخير لنفسه غريزة ، وأن التطلع لما فى أيدى الناس طبيعة ، فلم يحاول انتزاع هذه الطبيعة ، أو الوقوف فى طريقها . وانما ركز اهتمامه على نقطة واحدة ، وهى ألا تنمو بذور الشر فى هذه الطبيعة ، فتثمر الحسد ، حيث تتغذى معظم الرذائل الأخرى .

دوافع الحسد :

ذكر المحاسبى من دوافع الحسد حوالى سبعة أنواع ، اختص بعضها بأبواب مستقلة ، ذات عناوين رئيسية ، وتعرض لبعضها الآخر فى ثنايا بحثه . ويمكن تصنيفها جميعا على الوجه التالى :

١ — الكبر والعجب :

قد يأنف الانسان أن يرتفع عنه من هو أدنى منه فى مجال دينى ، أو منصب دنيوى ، كذلك قد يأنف أن يساويه ، أو يرتفع عنه من يماثله ، فى هذه الأمور « فاذا أنف منه ، وازدراه : ورثه ذلك الحسد له ، فأحب أن تزول عنه نعمة الله ، عز وجل ، غما أن يراها بمن لا يستأهلها عنده ، وأنفا أن يكون من دونه — مثله ، أو فوقه » ! .

ويمثل المحاسبى لذلك بقول قريش ، عندما بعث فيهم محمد ، أنه غلام يتيم ! وفى القرآن (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) [1] .

ومن ذلك أيضا ما ورد عن الأمم الماضية حين قالوا لرسلهم الذين

---

(١) سورة الزخرف ، آية ٣١ .

بعثوا اليهم (ما أنتم الا بشر مثلنا) (١) و (أنؤمن لبشر مثلنا) (٢) فجزعوا أن يفضل عليهم بشر مثلهم ، فحسدوه ، وردوا الحق ، وقالوا (أبعث الله بشرا رسول) (٣) وقالوا (لولا أنزل علينا الملائكة) (٤) ! تعجبا وانكارا أن يفضلهم من هو مثلهم .

٢ ــ حب الرئاسة :

وهو الداء الذى فرق أهل الكتاب ، حسدا بينهم أن يعلوا بعضهم بعضا فى العلم : كل واحد منهم يحسد صاحبه أن تكون له الرئاسة دونه على الناس ، فيرد كل واحد ما عند صاحبه من الحق ، ويخطئه فيما يقول ان كان حقا ، ويظهر أن الحق فى غيره ، ليصد الناس عنه ، ويطفىء نوره حسدا أن ترتفع منزلته ، أو يخضع له فيكون عليه رئيسا .

وبهذا الدافع كفر علماء اليهود بالنبى ، صلى الله عليه وسلم ، وهم يعرفون أنه قد جاء بالحق من عند الله ، حسدا أن يرئسوه عليهم ، وتذهب رئاستهم فى اليهود ، فيكونوا أتباعا بعد أن كانوا متبوعين !

٣ ــ حب المنزلة :

اذا كان التغلب على الجمهور بعامة هو الهدف من حب الرئاسة فان التغلب على شخص بعينه هو الهدف من حب المنزلة . وهنا يقدم المحاسبى مثالا ، كثيرا ما نراه فى حياتنا الجارية ، حين يقول :

« يتحاسد الصاحبان فى الحب والمنزلة عند من يصحبانه ، فيحب أحدهما ألا يفضله عليه فى عمل ولا علم ، ولا يرفعه عليه ، فيخطئه فيما

---

(١) سورة يس ، آية ١٥ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية ٤٧ .
(٣) سورة الاسراء ، آية ٩٤ .
(٤) سورة الفرقان ، آية ٢١ .

يقول ، ويحب أن يهتك ستره عند صاحبه ، ويقع فيه ، ويفطنه الى سوء الظنون فيه ، ويضع أمره لئلا يكون أحب منه ، وأن يكون الحب والمنزلة له عنده دون صاحبه » ! •

٤ — حب ظاهر الدنيا :

وبهذا الدافع يود الانسان أن ينال مثل ما يراه على غيره من نعم الدنيا المادية والروحية •

أما النعم الروحية فتتمثل فى تطلع الأخ الى حب والديه الذى يسبغانه على أخ آخر له ، أو تطلع الانسان الى ود الأقارب الذى يمنحونه أحد أفراد العائلة •

وأما النعم المادية ، فتظهر بوضوح فى كل من التاجر والصانع ، يحسد أحدهما الآخر ، ويحب أن يزول عنه المشترى والمستأجر ، فيبايعه (دون صاحبه) ويستأجره ، فيحب أن زبائنه صاروا اليه ، وتركوه ! •

ثم يقول المحاسبى : « وكذلك الضرتان ، والمرأتان » هكذا دون تعليق ! أما الضرتان فمن الواضح أن كلا منهما تنفس على الأخرى استئثار الزوج بها ، وتقربه منها ، وأما المرأتان ، فيمكن أن يتمثل الحسد بينهما فى كراهية احداهما ما أسبغ على الأخرى من نعمة الجمال أو الثروة ، أو ما يخصها به الناس من الاعجاب •

ويلاحظ أن المحاسبى يطلق على هذا الدافع : « حب ظاهر الدنيا » ولا شك فى أن اختياره لكلمة « ظاهر » ذو دلالة على تفاهة القيمة التى يقيس بها الناس أمور سعادتهم فى الحياة ، وأنها ليست أكثر من قشرة خارجية •

ومع ذلك فهو يقول : « وقد يخرج الحسد الذى يكون من حب الدنيا

كالملك والشرف حتى يقتتلوا ، فيقتل بعضهم بعضاً ، حسداً أن ينال من ملك الدنيا أو شرفها ، أو عزها ، أو اكرام أهلها مالا ينال صاحبه » [١] .

٥ — المشاكلة والمماثلة :

يرى المحاسبى أن المشاكلة فى النسب ، أو القدر ، أو فى الغنى ، أو فى التجارة ، أو فى الصناعة ، أو فى المناصب — من أشيع دوافع الحسد . فيقول : « يتحاسد بنو الأم ، وبنو الأعمام ، والاخوة أكثر ذلك دون سائر الناس ، فيحسد بعضهم بعضاً ، ولا يكادون يحسدون غيرهم من الغرباء » [٢] !

« وكذلك العالم يحاسد العالم . ولا يكاد يحاسد غيره . وكذلك أهل التجارات : يسرى الحسد من أهل كل تجارة الى من شاركهم فيها دون سائرهم من التجار ، كالبزازين (تجار الثياب) يحسد البزاز البزاز مثله ، يسوءه ويغمه ما يرى من نفاق سوقه وأرباحه ، ولا يكاد يحسد الجزارين والصيارفة وسائر الباعة » [٣] .

٦ — القرب :

يقول المحاسبى : « وكذلك من دنا منه من القرابة أسرع اليه بالحسد ممن تباعد عنه . ومن ذلك : ما روى أن عمر بن الخطاب كتب الى أبى موسى الأشعرى : « أن الأقرباء يتزاورون ، ولا يتجاورون » « فالقرب من المجاورة وغيره فى الحسد أسرع .. يحسد القوم عالمهم ، ويعظمون العالم الغريب ، لأنه ليس مثلهم ، ولا يساويهم فى النسب والجوار » [٤] .

---

(١) الرعاية ص ٤٣٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٣١ .
(٣) الرعاية ص : ٤٣١ ، ٤٣٢ .
(٤) الرعاية ص ٤٣٢ .

٧ ــ الحقد ، والعداوة ، والبغضاء :

يعد المحاسبى هذا الدافع المشتبك أشــد دوافع الحســد خطرا ، وذلك ما وصف الله ، عز وجل ، به الكفار ، وعداوتهم ، وبغضهم للمؤمنين ، فقال (واذا لقوكم قالوا : آمنا • واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ • قل : موتوا بغيظكم • ان الله عليم بذات الصدور • ان تمسسكم حسنة تسؤهم) (١) فأخبر أنهم مبغضون للمؤمنين ، يسوؤهم ما يرون به من نعمة الايمان والطمأنينة الروحية ، حســداً لهم ، لبغضتهم وعداوتهم ، فأخرجتهم العداوة والبغضاء الى الحسد (٢) •

فالمبغض المعادى لا ينفك من الحسد والشماتة ، وقد يكــون عن حسد العداوة والبغضاء : القتل ، وأخذ المــال ، والسعاية بمن يحســده ، وهتك ستره ، وغير ذلك • فالمبغض حســده أعظم الحسد وأشده ! » (٣) •

عــلاج الحســد :

يسير المحاسبى فى علاجه لهذه الظاهرة على منهج مكون من مرحلتين :

الأولى : بيان خطورة الحسد ، وتفصيل أضراره التى تلحق الحاسد فى نفســه ، ودينه ، ودنياه •

الثانيــة : تبدأ حيث تنتهى الأولى • وتتمثل فى دعوة الانسان أن يتدبر ــ بعقله ــ هذه الأضرار ، ويقف أمام نفســه موازنا بين السلامة منها ، أو التورط فيها • حتى اذا ما اقتنع بكراهة الحسد ، أمكن له السيطرة عليه ، أو حصره فى أضيق نطاق •

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١١٩ ، ١٢٠ •
(٢) وأخرجتهم الى الشماتة فى قوله تالى : (وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) ــ سورة آل عمران ، آية ١٢٠ •
(٣) الرعاية ص ٤٢٩ •

(أ) المرحلة الأولى : أضرار الحســد :

آمن المحاسبى بخطورة الحسد على المستوى الاجتماعى ، وأنه من أهم أسباب اختلاف أفراد الأمة الواحدة ، وعوامل تدهورها • كما أنه على المستوى الفردى أصل لكثير من الشرور الأخلاقية التى تترتب عليه ، والعذاب النفسى الذى يصاحبه • وقد كتب فصلا ممتعا فى بيان أضرار الحسد ، مركزا على نقطة هامة ، تتمثل فى أنه يخاطب الفرد ، وهو مدرك تماما لغريزة حرصه الشخصى على منفعته الخاصة ، فبين لــه أن الحســد لا يتفق وهــذه المنفعة ، وبضربه على هذه النغمة المــادية بالاضافة الى استخدامه أسلوب الترغيب والترهيب يمكن أن نقرر نجاح المحاسبى فى محاولته ، الى حد كبير •

وفيما يلى أهم العناصر التى أدار المحاسبى حولها شرحه لبيان اضرار الحســد ، مع قدر كبير من التركيز :

— الحاسد يغش المحسود المؤمن ، ويشارك بذلك أعداءه من المشركين فى عداوتهم التقليدية للمؤمنين •

— الحاسد يسخط على قضاء الله فى تقسيم النعم والأرزاق علــى عبــاده •

— الحاســد لا ينال منفعة دينية أو دنيوية على حسده ، بل على العكس يستوجب غضب الله وسخطه •

— ليس الحسد سببا مؤثراً فى زوال النعم ، لأن الله ، تعالى ، لا ينفذ مشيئته حسب رغبات الحاسدين ، والدليل على عدم تأثير الحســد أن الله ، تعالى ، أبقى على الأنبياء نعمه ، وكثيرا ما حســدوا من قومهم ، كما أبقى على الأغنياء غناهم ، وحافظ للمؤمنين على ايمانهم • يقول تعالى : (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون الا أنفسهم) (١) •

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٦٩ •

ـ الحاسد هـو الخاسر ، وليس المحسود ، ويمثل المحاسبى لذلك برجل أراد أن يرمى عدوا بحجر ، فعاد الحجر الى عينه هو ، وبيان ذلك أن الحاسد كان ـ قبل أن يحسـد ـ فى (نعمة السلامة من الحسد) فلما تحركت نفسه بهذا الشعور الخبيث فقد تلك النعمة .

ـ يفترض المحاسبى امكانية تحول أمنية الحاسـد فى المحسود اليه ، نتيجة سخط الله ، ويمثل لذلك بانسان أراد زوال الايمان عن آخر ، فزال ايمانه هو . يقول الله تعالى : (يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم) [1] .

ـ الحسد عذاب نفسى ، وغم ، وجزع يتجددان كلما استمرت النعم على المحسود ، ويستفحلان بزيادتها .

ـ لو تدبر الكافر الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة تلك الأضرار السابقة لارتدع خوفا على سلامة دنياه ، فكيف بمؤمن يعتقد باليوم الآخر ، وما فيه من جزاء على النوايا والأفعال .

ـ الحسد شعور يقويه ابليس فى نفس المؤمن ، لأنه لو ترك المؤمن ونفسه لأحب الشخص الذى تظهر عليه النعم ، وخاصة الدينية ، فحاول منافسته ، وربما لحق به ، ففاز . واذا لم يحاول منافسته ، فحسبه شعور المحبة ، والمشاركة القلبية . جـاء فى الحديث : « أهل الجنة ثلاثة : المحسن ، والمحب لـه ، والكاف عنه » .

ـ لو أن الحسـد يؤثر فى المحسود لكان الحاسـد معرضاً هـو الآخر لحسـد غيره « فان أردت الا يطيع ربك فيك الحاسدين ، فأنت أهل ألا تحسد عباده ، اتباع محبته ، وشكرا له على ذلك » [2] .

المرحلة الثانيـة :

سبق أن هذه المرحلة تبدأ حيث تنتهى الأولى . ومع ذلك فقـد ود

---

(١) سورة يونس ، آية ٢٣ .
(٢) الرعاية ص ٤٣٩ .

المحاسبى لو أنها بدأت مع بداية المرحلة الأولى • فهو يقول : « وانما سردت لك هذه الخلال التى بها ينفى الحسد ، ان لم تسخ نفسك بترك الحسد بالخلة الأولى ، فعسى أن تسخو فتتركه بالخلة الثانية ، فان لم تسخ بالثانية ، فعسى أن تسخو بالثالثة ، أو الرابعة •• » [٢] •

غير أن المحاسبى يدرك تماما شراهة الحسد ، وأنه داء « شمل أهل الدين والدنيا » ، ومن ناحية أخرى « فانه يدرك طبيعة الانسان الذى يصاب به ، أنه ليس ملاكا يحلق بأجنحة ، فيقول : « انك لا تقدر أن تسكت عدوك ابليس ، ولا تغير طبعك ، فتجعل خلقة نفسك خلقة لا تنازعك الى حسد من عاداها ، أو تختص بشىء دونها ••• ولم تكلف أن تجعل طبع نفسك بهيئة من لا يغفل ، ولا يسهو ، ولا ينازع الى محبوب ولا مكروه ، فذلك طبع الملائكة » [٣] ! •

واذ يقرر المحاسبى ان الانسان غير مكلف بتغيير طبيعته التى خلق عليها ، فانه يؤكد أنه مكلف باستخدام عقله الذى اختصه الله به ، وهو يرى أن **معرفة أضرار الحسد** تحرك شعور الكراهية لـه ، وتقوبه ، وعندما يستحكم هذا الشعور الجديد — تحت رعاية العقل — يصبح الحسد مشلولا فى مكانه المظلم من النفس ، بل ربما ضمر ، وانمحى • يقول المحاسبى : « فاذا كنت للحسد كارها ، أبيا لـه من قبل عقلك ، فلا يضرك منازعة نفسك به ، وخطرات العدو — يقصد ابليس » ! [١] •

هذا ، ويمكن الاشارة الى أن فكرة التطهير الأخلاقى عن طريق العقل قد تناولها جالينوس فى كتاب « تعرف المرء عيوب نفسه » الذى ترجمه وأصلحه حنين بن اسحاق ، وفيه يثبت جالينوس أن أخطاء الناس تنتج من شهواتهم ، وعليهم أن يتحكموا فيها بعقولهم ويتسلطوا عليها ، حتى

---

(١) نفس المصدر ص ٤٤٠ •
(٢) نفس المصدر ص ٤٤١ •
(٣) الرعاية ص : ٤٤٠ •

ينجوا من هذه الأخطاء ، والخطأ الأخلاقى يرجع ، فى نظره الى الخطأ العقلى » (٢) .

الجزاء الأخلاقى للحســد :

يبين المحاسبى فى نص فريد ، الجزاء الأخلاقى للحســد ، وخاصة اذا حل « بالمحسود ما تمناه الحاسد له » ، ثم شعر هذا الأخير بالندم ، وتقدم فى طريق التوبة طالبا الغفران . فلمن يعتذر ؟ وأمام من يطلب الصفح ؟ .

ويقرر المحاسبى أن القانون اذا كان لم يحدد للنوايا الشريرة ، ومنها الحسد ، جزاء ماديا ، فان الشرع قد تعقبها ، ورصــد لها جزاء روحيا ، ربما كان أقسى على النفس من العقاب المــادى ! .

ومن الأفضل أن نعرض ، فى هذا المجال ، لنص المحاسبى نفسه قصداً الى التعرف على طريقته ، ولغته ، ثم على مدى تحليله لبعض النوايا التى قد تكون غامضة فى أعماق النفس .

« قلت : فان ساءنى ما رأيت من النعم ، وتمنيت زوالها ، فينزل من البلاء ما يزول عنه ، كالغنى : يزول عنه وينزل به الفقر ، أو الصحــة ، فينزل به المرض ، أو العلم : فيحل به الجهل ، أو العصمة فيحل به الخذلان ، أو الستر فيحل به هتك الستر ، ثم ندمت على ذلك ، أيكون للمحسود عندى مظلمة يجب على التحلل منها ؟ .

قال : أما ما كان من عمل القلب ، ولم تستعمل به جوارحك ، فذلك ذنب بينك وبين الله ، عز وجل ، عصيته به فى عباده ، نهاك عنه وذمــه اليك ، فليس عليك فى ذلك للمحسود تبعة ، ولا يجب عليك استحلاله .

---

(١) ابن مسكوية وفلسفته الاخلاقية للدكتور عبد العزيز عزت ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

فان خرجت الى غيبة أهاجك عليها الحسد الذى فى قلبك ، أو تكذب عليه (أى المحسود) ، أو تغتاله بغائله تحرمه بها منفعته ، أو تنزل به مكروها ، أو أخذ مال لا يحل لك من مالـــه ، فعليك الاستحلال من ذلك وما أشبهه •

وأما ما لم يعد (يتجاوز) القلب فهو ذنب عظيم ، لا يجرى مجرى المظالم التى فيها القصاص بين العباد فى عمل الجوارح فى النفس والأموال والأعراض • ولرب شىء لا قصاص فيه أعظم من كثير مما فيه القصاص •

وقد جاء فى الحديث النبوى : ان الحسد يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب [1] •

والخلاصة أن الحاسد اذا ألحق بالمحسود أذى ماديا وجب عليـــه الاعتذار لـــه ، وطلب السماح منه • أما بالنسبة الى شعور الحسد نفسه ، فانه يظل « ذنباً خفياً » بين الحاســـد وبين الله ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصـــدور • وحينئذ فعليـــه أن يتضرع اليه سبحانه بالتوبة ، وطلب المغفرة •